وظلّ يبكي ...

قصة بقلم
عوض شعبان

.. ومضى به القطار ، يمزق صمت الليل بضجة صاخبة تحدثها قرقعة الدواليب على قضبان السكة ، وكان صفيره الحـــاد المتقطع يؤذي أذنيـــه . مدّ يده متحسسا وجهه الصارم ذا التجاعيد وتمتمت شفتـاه بخوف مخنوق : « انه لا يزال يبكي » ..

لكنه عاد فوضع يديه في جيبيه وبلع ريقه وأخذ يتطلع في وجوه المسافرين الـــذين كانوا منهمكين في الحديث وفي قراءة بعض الصحف ، فلم يسمعه أحـد منهم وهو يتمتم بصوت خفيض : « انه لا يزال يبكي » !

أدار ظهره الى جدار العربة المستطيلة التي كانت تهتز فتهزه بدورهـــا بحيث أخذ يشعـــر بالدوخان . فأغمض عينيه مجددا . ان عنف صراخه المنبعث مـــن قلبه الصغير كان يحطم أعصابه . هل مـن المعقول أن يكون ابنه ؟ لا ، محال . ليس من شيء يقنعه بأنه ابنه . فقد أجمع الاطباء على انه عقيم . عقيم .. ورددت معه ضجة القطار : « عقيم .. عقيم .. » . فصرّ عـــلى أسنانه بينما تلوثت ذاكرتـــه المتداعية بصراخ الطفـل وضجيج القطار . وأخذت الصور المتباينة المغبشة تزدحم على زجاج النافذة المترجرج حيث كان يحملق كالابـله . ها هو يشيّع زوجه الاولى . انه لا يزال يذكر آخر كلمة فاه بها ذلك الفم الواهن : « ولد .. لو كان لنا ولد » .

وتشعبت الصورة وترجرجت مع ترجرج زجـاج النافذة . وتقاذفت ملامح تلك المرأة الوفية أمام عينيه . انها صفراء .. صفراء . أكان من الممكن أن يحدث ذلك ؟ انها حشرجة الموت . هو العدم . لقـــد تبخر كل ذلك البهاء واستحال الى لا شيء . أهذا ما يدعونه الفناء ؟ أيضيع كل شيء هكذا ، وفي لحظة واحدة ؟!

قبّل يديها الباردتين ومرّغ وجهـــه بصدرهـا الخامد . لم تنفعه توسلات عينيـــه ، فقد امّحت تلك المرأة من الوجود ، ولم يبق منها سوى تلك الكومة مـن من العظام ، وما علق بها من كتل لحم صفراء .

وعاد الصغير مختلطا بقرقعة الدواليب . وصراخ الطفل يعبث بأذنيه . وتراكمت آلاف المشاهد في مخيلته دفعة واحدة . ودخلت صورة زوجه الثانية في صورة زوجه الاولى ، فأغمض عينيه من جديد وفرك جبينـه ثم ضغط عـــلى رأسه بكفيه ، وأخـــذ يلهث كالكلب المسعور . انها خائنة . هذا واضح . فقد أنجبت ولدا . نعم ، أنجبت ولدا ..

وقبض على شعره ثم مرق كفه على حنكه ، وحملق في النافذة . انه عقيم . كل الاطباء أجمعوا على ذلك . كيف أنجبت ولدا اذن ؟ آه ، تلك العاهرة ! قد يكـون ابن القصّاب . لست أدري . لعله ابن شفيق ، صديقي المخـــادع . اني أحس بذلك . لا ، القصاب .. بـــل شفيق . القصّاب .. شفيق . وكانت قرقعة الدواليب تردد معـــــه : « القصاب .. شفيق .. القصاب .. شفيق .. » .

وعاد الصراخ منبعثا من بين الضجيج . وتطلع في بدبه . كانتا ترتعدان . كيف يستطيع ذلك الفم أن يبكي ما دامت هاتان اليدان قد خنقتا صوته في حلقه ؟

واقشعرّ بدنه . انه ليس ابنه . ذلك ابن سفاح . من نظرات عينيه الصغيرتين .. أكانتا بريئتين ؟ ونفخ على باطن كفه ثم فرك يديه ، وشدّ جلد رقبته بيـده اليسرى ، بينما مدّ يمناه الى خده تفركه بعنف . محال أن يغمض له جفن على غير منظر ذينك العينين وهمـــا تتطلعان اليه في أسى عميق . يا الهي .. حتى ابن شهر يعرف الاسى ؟ أكانتا تتوسلان ؟

هراء . انه ابن سفاح . ولكنـــه ظل يبكي ! ان صراخه يتعالى . وخمدت أنفاس الطفل بعد أن حبسها بالوسادة الصغيرة . ولكنه ظل يبكي .. انه يبكي !

أمسك رأسه بكفي يديه ، وشدّ شعره ، وكاد ينفجر . ان ذلك الطفل لن يكفّ عن البكاء . لقد دفنـه بيديه هاتين . نفس اليدين اللتين قبضتا على الوسـادة بشـــدة .

وعاد يلهث باعياء . نعم . لقد دفنته وأهلت على رأسه الصغير حبات التراب الاسمر . ومع كل هذا كنت أسمع صراخه .

وأحسّ بضيق شديد في صدره . انه يختنق . ففتح زجاج النافذة ، وهبّت نسمات الشتاء البـاردة تلفح وجهه الكالح . واشرأبّ بصره من بين العتمة ليقع على قبر صغير في ذلك القفر ، فانتفض رهبة ، وارتعدت أوصاله ، فأغلق الشباك بقوة وأدار ظهره وهو يسد أذنيه باصبعي يديه المرتجفتين . انه لا يريد سماع ذلك الصوت المنبعث من ذلك القبر الصغير ..

وركض في عربة القطار المستطيلة . وصبّ بصره على طفل رضيع في حضن احدى المسافرات . فأمسك بالمقعد وجلا وصرخ في وجهها ، مشيرا الى الطفـل : « مات .. مات .. لكنه ظل يبكي » !

بيروت